البحوث
والدراســـات

البارودى
من الانتصار إلى الانكسار

د. لطيفة محمد سالم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بكلية الآداب - جامعة بنها

البارودى
من الانتصار إلى الانكسار

مقدمة

تُعد الفترة الأخيرة من حكم الخديوى إسماعيل من أهم الفترات التى أثَّرت فى الحركة الوطنية ، نتيجة لسياسته سواء بالسلب أم الإيجاب . وفى أثنائها حمل المثقفون رسالتهم ، وانشغلوا بهموم وطنهم ، وأدركوا الدور المنتظر لهم ، وواتتهم الظروف التى جمعتهم ، وذلك بعد أن ساءت أوضاع مصر المختلفة ، وثبَّت التدخل الأجنبى أقدامه ، وبدأ اقتصاديا ثم توسع سياسيا .

ومن المعروف أن المثقفين جمعوا بين المدنيين والعسكريين ، وكانت لهم أدواتهم العملية والتى اختلفت مستوياتها ، والهدف واحد ، كمن فى بلورة الرأى العام وتوصيل الأفكار التحررية للناس ، وذلك عن طريق أكثر من اتجاه :

الأول ـ الجمعيات التى تشكلت منذ عام ١٨٧٤ وحتى عام ١٨٧٩ ، وقد اتّخذ معظمها من السرِّية منهجا له ، وكانت أغلبيتها تحمل الطابع الخيرى من الناحية الشكلية .

الثانى ـ لقاءات المقاهى ، وأشهرها "متاتيا" بالعتبة الخضراء ، وهى المكان الذى خصَّصه جمال الدين الأفغانى ليجتمع فيه مع حوارييه .

الثالث ـ الصالونات الشعبية ، أى التجمُّعات ، ويتم بعضها لدى الأماكن الخاصة مثل دكاكين الحلاقة والعطارة وغيرهما ، ويجرى البعض الآخر فى المناسبات التى كثيرا ما اختُلقت . وفى الأخيرة كانت الخطابة وقودها . فالكلمة المسموعة ، وخاصة إذا جاءت من لسان مُفَّوه ، ومشاعر وطنية فيَّاضة يكون لها الصدى الواسع لدى المستمعين .

الرابع ـ الصحافة التى تمتَّعت بحرية ملموسة ، واحتضنت الأقلام المفكرة .

الخامس ـ المسرح ، حقيقة أنه لم يكن له الجمهور العريض ، لكنه أسهم فى ترجمة رسالة المثقفين . وتفاعلت تلك الاتجاهات فى توليفة ثقافية مُنسَّقة ، ونجحت فى أداء مهمتها ، حيث مثَّلت الدعامة الأساسية التى قامت عليها الثورة العرابية .

ويذهب البعض إلى أن هذه الثورة هى حركة تمُّرد أو فتنة عسكرية ، قام بها ضباط رغبة فى الاستيلاء على الحكم ، وتحقيق مصالحهم ، ولكن هذا الرأى جانبه الصواب ، فهى ثورة وطنية ، شاركت فيها كافة المستويات الاجتماعية فى مصر ، وشهد لها أعداؤها بذلك ، إذ ذكر جرانفل Granville. وزير خارجية بريطانيا ـ أنها ثورة ظفرت بنجاح ، كما سجَّل كرومر Cromer. المعتمد البريطانى فى مصر ـ فى تقريره لعام ١٩٠٤ قوله "إن ثورة عظيمة حدثت فى القطر المصرى عام ١٨٨٢" [١]، وكذلك استخدم ملنر Milner. وزير المستعمرات البريطانى ـ هذا المسمى أثناء تفاوضه مع سعد زغلول عام ١٩٢٠ حين تناقشا فى مادة بقاء جيش الاحتلال بمصرى ، إذ عارض جلاء القوات العسكرية البريطانية خوفا من عودة "الثورة العرابية" [٢].

ما قبل الثورة

من المسلَّم به أن محمود سامى البارودى (٦ أكتوبر ١٨٣٩ـ ١٢ ديسمبر ١٩٠٤) يُمثِّل أهمية كبرى فى الثورة العرابية ، بل ويُعد من الدعائم الأساسية التى قامت عليها ، لأسباب متعددِّة ارتبطت بهذه الشخصية ، ويمكن القول إنه الضابط الثورى المنتمى إلى علية القوم ، والذى انصهر مع الضباط أصحاب الأصول المتواضعة من أجل الثورة .

ينحدر البارودى والمعروف برب السيف والقلم من أسرة مملوكية چركسية ذات شأن فى المجتمع ، فقد كان جده كشَّافا فى عصر محمد على ، وأبوه رجلا عسكريا عمل فى سلاح المدفعية . أما عن لقب البارودى ، فإنه نسبة إلى إيتاى البارود التى كانت فى التزام أحد أجداده فى العصر العثمانى .

تربى البارودى تربية عسكرية ، وتخرَّج فى عهد سعيد عام ١٨٥٥ ، وترك مصر عامين إلى إستانبول ، حيث شغل بعض المناصب الرسمية فى الخارجية العثمانية ، وعاد إليها مع حكم إسماعيل عام ١٨٦٣ الذى كان من المعجبين به ـ زوَّجه مرة إحدى نساء الحرملك ، ومرة أخرى إحدى بنات الأسرة اليكنية التى تربطها صلة نسب بالأسرة الخديوية ـ فأصبحت له المكانة المرموقة ، زد على ذلك تمتعه بالصفات الحميدة .

وبرز البارودى فى المجال الحربى إبَّان إخماد ثورة كريت عام ١٨٦٦ ، وأيضا فى الحرب الروسية التركية (١٨٧٧، ١٨٧٨) ، وتدرَّج فى السلك العسكرى حتى

رتبة لواء ، وتولى منصب مدير الشرقية عام ١٨٧٩ ، ثم عُيِّن مأموراً لضبطية مصر ، وما لبث أن أصبح ناظراً للمعارف والأوقاف فى نظارة شريف الثانية (٥ يوليو – ١٨ أغسطس ١٨٧٩) ، ثم ناظرا للأوقاف فى نظارة الخديوى توفيق الثانية (١٨أغسطس – ٢١ سبتمبر ١٨٧٩) ، واستمر ناظرا للنظارة نفسها فى نظارة رياض الأولى (٢١ سبتمبر ١٨٧٩ – ١٠ سبتمبر ١٨٨١) [٣] . ومعروف أن الاختيار لمن يتولى نظارة الأوقاف ، يخضع لشروط مميزة ، توفرت لدى البارودى الذى أصبح رجل دولة .

وامتلك البارودى ثروة ثقافية ، امتزجت بنفسه ، وسمت به ، وانعكست على أشعاره التى جعلته شاعر الكلاسيكية الجديدة من ناحية ، ودفعته لتشرب المزيد من الأفكار المستنيرة التى استقاها من قراءاته ، وتأثره بآراء الطهطاوى والمرصفى والأفغانى وباقى المحيطين به من المثقفين ، وكذلك من مخالطة الأوربيين ذوى الفكر المتحرر من ناحية أخرى . أيضا فإن دراسته للفنون العسكرية صقلته ، فلم يصعد السلم العسكرى وهو من تحت السلاح ، كما أن المناصب التى شغلها هيَّأت له التعرف على بواطن الأمور ، وساعدته على نسج خيوط الصلات مع المسئولين . وأخيرا فإنه من ملاك الأراضى ، حقيقة لم يكن يمتلك أكثر من ١٧٠٥ من الأفدنة عند قيام الثورة[٤]، لكنها كانت سندا له . ومن اللافت للنظر أنه لم يستغل مركزه إبَّان الثورة ليزيد من أملاكه مثلما فعل غيره ، وعلى الرغم كل هذه الإمكانات التى تمتع بها البارودى ، ووفقا لمقاييس عصره ، فهى تجعله يتعالى ويتكبر ـ وخاصة لانتمائه للجنس الچركسى ـ على الضباط المصريين الذين صُنِّفوا فى أدنى الدرجات ، فإنه كان لهم المؤيد والمؤازر .

كانت أولى خطوات البارودى للارتباط بالحركة الوطنية ، والتى فتحت الأبواب أمامه للاختلاط بالمثقفين ، هى لقاءات الأفغانى الذى مكث فى مصر بين عامى ١٨٧١ ، ١٨٧٩ ، وقد جمعت مختلف الشرائح من الباشوات والأعيان والمثقفين بنوعيهما المدنيين والعسكريين والتى قامت الثورة على أكتافهم . وفى هذه اللقاءات ، طُرحت القضايا التى تعانى مصر منها، والحلول التى يُمكن التوصل إليها . ولفت البارودى النظر لآرائه الصائبة التى تحاور فيها ، والأفكار المستنيرة التى عرضها ، وقد هاجم حكم إسماعيل وهجا رجاله ـ رغم علاقته

السابقة به ـ ونقد بمرارة الحالة التى وصل إليها الجيش ، وهو الرجل العسكرى الذى يدرك مدى خطورة ذلك .

والواقع أن چركسية البارودى لم تعد تُشكل له أى إعاقة فى الاندماج مع المصريين ، إذ تمتع بوطنية مُتَّقدة ، وهام بحب مصر ، ورأى أنها صاحبة الحضارة العريقة ومنارة العلم والمعرفة والتى لها الفضل على الآخرين ، وأنه قد آن الأوان لتحصل على حريتها وتسترد مكانتها السابقة . وكان دائم التحدث عن وطنيين حرروا شعوبهم مثل واشنطن Washingtonولافاييت La Fayette وجاريبالدى Garibaldi، أيضا كثيرا ما استفاض فى شرح معانى الوطنية (٥).

فى ذلك الوقت كانت مصر تمر بمرحلة شديدة التعاسة ، وذلك بعد أن ارتمى إسماعيل فى أحضان القروض ، ومضى التدخل الأجنبى فى شئونها ، وجاءت البداية مع بعثة كيف Cave الإنجليزية فى ديسمبر ١٨٧٥ ، وما لبث أن تكوَّن صندوق الدين فى مايو ١٨٧٦ ، وأعقبه حضور ثنائى جوشن Goshen وچوبير Jubert الذى نتج عنه المراقبة الأنجلو فرنسية فى نوفمبر من العام نفسه ، ثم لجنة التحقيق الأوروبية فى يناير ١٨٧٨ ، وسرعان ما تدعم النفوذ الأجنبى بدخول ناظرين إنجليزى وفرنسى فى النظارة التى شكَّلها نوبار فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ . وارتبط ذلك بما فُرض على المصريين بمختلف مستوياتهم من أعباء، وأصبح الجميع يئن تحت تلك الظروف الصعبة.

وبدأ التذمر فى الجيش نتيجة لما أصابه من عوامل نخرت فيه ، تلك التى بلغت ذروتها مع حكم إسماعيل ، وكان فى مقدمتها المعاملة القاسية التى لقيها الضباط المصريون ـ المنتمون لأصول فلاحية ولم يتخرجوا من المدارس العسكرية ـ من القادة الچراكسة ، وذلك التمييز الصارخ بين العنصرين ، ولم يسلم الجيش من اليد الأجنبية التى امتدت له ، فأنقصت أعداده ، وخفَّضت ميزانيته . وأحاط الظلم الضباط من كل جانب ، فبالإضافة إلى ما تعرضوا له ، فإنهم كأفراد مصريين أصابهم البؤس وشظف العيش وضيق ذات اليد . وبدأ شاكو السلاح يتحركون بعد أن وجدوا القائد الذى يعبِّر عن آلامهم وآمالهم ، وذلك بعد أن أخذ على عاتقه مسئوليتهم ، وذلك هو أحمد عرابى الذى مضى يعمل من أجل التنفيذ .

وجاءت مظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ ، حيث توجه عدد منهم إلى مجلس شورى النواب ، واختاروا من يتحدث باسمهم ليشرح ما يقاسونه من أعباء الديون والرفت من الخدمة والفقر المدقع الذى أحاط بهم ، وأن غيرهم من الأجانب يعيشون فى رغد العيش على أرض مصر . وانضم إلى وفدهم بعض أعضاء المجلس لعرض الأمر على نوبار رئيس مجلس النظار ، والتقوا به فى الطريق ، ورفض أن يسمعهم ، فتعلقوا بعربته فهددهم ، كما هجموا على ولسن Wilsonناظر المالية الإنجليزى ، ودخلوا نظارة المالية وحاصروا من بداخلها . وحضر إسماعيل على الفور ومعه قناصل الدول ، وهدأ الموقف بعد أن حدثت بعض الإصابات ، وتم القبض على الثائرين ، وكان من بين المتهمين عرابى ـ رغم بعده عن مسرح المظاهرة على أساس أن له اليد فيما حدث ـ ومثلوا أمام البارودى مأمور الضبطية ، وعُدَّ ذلك لقاء قدريا بين هذين الشخصين اللذين سوف يكون لهما الدور فى صناعة الثورة ، وسجَّل عرابى انطباعه عن البارودى بشأن هذا اللقاء فقال " وآنست فيه تأففا من الظلم والاستعداء وميلا إلى العدل والدستور"[٦] . وحاول البارودى أن يقدم مساعدته للثائرين، لكنه لم يتمكن إذ كان التصميم على عقد مجلس عسكرى لمحاكمتهم ، فما كان منه إلا أن تنازل عن نصف راتبه مساهمة منه فى التخفيف عن حالة الضنك التى يعيشها العسكريون[٧] . ودلَّ هذا التصرف على المشاركة الوجدانية .

وعندما اعتلى توفيق عرش الخديوية فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ ، وكان أمل الوطنيين معقودا على هذا الشاب الذى له الصلات مع الأفغانى ومنتداه ، هنَّأه البارودى مطالبا إياه بضرورة إقامة الحكم على أساس الشورى وتقوية الجيش ، أى أنه جمع بين السياسة والسلاح فقال:

أَمْرَانِ مَا اجْتَمَعَا لِقَائِدِ أُمَّةٍ ... إِلاَّ جَنَى بهمَا ثِمَارَ السُّؤْدُدِ
جَمْعٌ يَكُونُ الأَمْرُ فِي مَا بَيْنَهُمْ ... شُورَى وجُنْدٌ لِلْعَدُوِّ بِمَرْصَدِ
هَيْهَاتَ يَحْيَا الْمُلْكُ دُونَ مَشُورَةٍ ... ويَعِزُّ رُكْنُ الْمَجْدِ مَا لَمْ يُعْمَدِ
فَالسَّيْفُ لا يَمْضِي بِدُونِ رَوِيَّةٍ ... وَالرَّأْيُ لا يَمْضِي بِغَيرِ مُهَنَّدِ[٨]

ولكن ما لبث أن فُقد الأمل فى الخديو الجديد ، ومضى العسكريون فى مواصلة الجهر بالشكوى ، فى وقت ازداد فيه الضغط عليهم ، وبالغ عثمان رفقى

ناظر الجهادية الچركسى فى قمعهم ، واستخدام مختلف الوسائل فى إيذائهم وتحقيرهم . ولم يكن البارودى ـ ناظر الأوقاف آنذاك ـ براض عن تصرفات المسئولين تجاه الوضع القائم ، وفى الحين ذاته ، انخرط مع النشاط السياسى ، وكان له الدور البارز فى بيان الحزب الوطنى الذى صدر فى نوفمبر ١٨٧٩ . ولم يكن هذا الحزب يحمل المعنى المتعارف عليه ، وإنما مثَّل هيئة شملت ملتقى الاتجاهات ، لكنها حافظت على الوحدة من أجل تحقيق هدف الحركة الوطنية . وقد ندد الحزب بالحكم ، موضحا أن الشعب لم يعد يقبل الاستبداد ، ويرفض أى تدخل أجنبى أو وجود نظار يمثلون نفوذا أجنبيا ، ويرى إنقاذ مصر من أيديهم ، وأن تشرف مصر على ماليتها ، وحدَّد طريقة لذلك ، وأن ترد أملاك الخديوى للدولة ، كذلك تناول النهوض بالشعب عن طريق التعليم ومعرفة حقوقه وواجباته[٩]. وبذلك يتبيَّن دخول البارودى فى زمرة القائمين على هذه الصحوة .

الانتصار

قُدِّر لمصر أن يتولى زعامتها عسكريون فى هذه الآونة ، وخاصة أولئك الذين لا ينتمون إلى شريحة اجتماعية عُليا ، ورقوا من تحت السلاح ، وكما ذُكر فقد عاشوا ظروف المعاناة التى يحياها عامة المصريين ، وأضيفت إليها معاناة أخرى ، تمثَّلت فيما يلاقونه على يد ناظرهم الچركسى ، وبالتالى أصبح لابد لهم أن يتحركوا بعد تيقُّنهم من مسئوليتهم عن التغيير .

ولما كان الجيش هو صاحب السلاح ، فقد وجد فيه المصريون القوة التى تحقق لهم أمانيهم ، فتقول صحيفة المفيد "إن عساكرنا المصرية هم أهل البلاد ، وعلى الأقل موجود فيهم فى كل بلدة ثلاثة أنفار ، الواحد منهم لا يخلو من أن يكون بينه وبين سكان بلده الأصلى صلة الأُبوَّة والبُنوَّة والأُخوَّة والعمومة ، ونحو ذلك من روابط القرابة أو المجاورة ، فأية علاقة أقوى من هذه ؟"[١٠]. معنى ذلك أن هناك علاقة متأصلة بين الطرفين .

أقدم عثمان رفقى على وقف حركة الترقية للضباط الذين هم من تحت السلاح ، وقرر أن تبقى الخدمة العسكرية مدة أربع سنوات ـ وهى غير كافية للحصول على الترقى ـ ثم يشطب الاسم من السجلات بعد فترة معينة ؛ وأسرع فى تنفيذ خطته، ففصل الضباط المصريين دون تحقيق ، وعين بدلا منهم ضباط چراكسة[١١] عندئذ كُثِّفت اجتماعات الضباط المصريين ، وتولى عرابى

الرد على ذلك ، وأشعل الحماس لمقاومة الطغيان وتقرر إسقاط رفقى والدفاع عن حقوقهم ، وأعدوا تقريرا ، قدمه عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى رئاسة مجلس النظار فى ١٥ يناير ١٨٨١، شكوا فيه من تصرفات ناظرهم ، ونعتوه بصفاته السيئة، وزُيِّل التقرير بتوقيع أكثر من ٥٠ ضابطا [١٢].

ولم يلق ذلك الاهتمام من المسئولين ، وكرَّر الضباط طلباتهم وأصرّوا عليها ، وانتهى الأمر بضرورة مثولهم أمام مجلس عسكرى بقصر النيل ـ مقر نظارة الجهادية ـ ودبَّر عثمان رفقى حيلة للقبض عليهم ، تضمَّنت دعوة الضباط الثلاثة للاشتراك فى ترتيب حفل زفاف إحدى الأميرات [١٣] . ولما كان البارودى ناظرًا للأوقاف فى ذلك الوقت ، فقد علم بالمؤامرة التى تحاك ضد الضباط ، ولم يكن راضيا عن تصرفات زميله ناظر الجهادية ، وعليه فقد أبلغ عرابى بما تقرر حتى يتصرف ، ومن ثم أعدَّ الأخير للأمر عُدَّته .

ذهب الضباط الثلاثة إلى قصر النيل فى أول فبراير ١٨٨١ ، وصدر الحكم عليهم بتجريدهم من وظائفهم ونفيهم وتسليم مناصبهم إلى چراكسة[١٤] . وهنا حضرت النجدة برئاسة البكباشى (المقدِّم) محمد عبيد ، وكان مشهدا دراميا ، إذ اختفى المجلس العسكرى فى الحال، وقد عُرفت تلك الحادثة بواقعة قصر النيل ، وكانت أول انطلاقة ناجحة للثورة العرابية.

اتجه الضباط الثلاثة ومن معهم إلى عابدين ، حيث طلب عرابى من الخديوى إقصاء ناظر الجهادية، ورأى توفيق الملاينة ، بينما تصلّب رياض رئيس مجلس النظار ، وبعث الأول وفدا إلى الضباط للتفاهم معهم ، وكان البارودى أحد أفراده . وجاء رد الضباط ، وانحصر فى طلب تعيين البارودى ناظرا عليهم، والمساواة فى معاملة الضباط المصريين الچراكسة ، والعفو عما حدث[١٥].

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن ، لماذا تم اختيار البارودى ؟

من المعروف أن البارودى لم يجر فى عروقه الدم المصرى ، لكنه كان مصريا بروحه ومشاعره وأحاسيسه ، وعليه أصبحت له المكانة بين المثقفين بفرعيهما المدنى والعسكرى ، أيضا وُضع فى الحسبان تلك الثقافة التى تمتع بها ، والأفكار التحررية التى اعتنقها ، والأخلاق الرفيعة التى اتَّصف بها ، والأنشطة التى مارسها مع التيار الوطنى ، والعلاقة التى ربطته بالمسئولين ،

وكذلك بالقنصل الفرنسى دى رنج de Ring الذى كان متعاطفا مع الثائرين – وقد علم بأخبارهم وتحركاتهم عن طريق البارودى[١٦] ثم تلك الشهرة التى أحاطت به من كل جانب لتنطق بشرفه وأمانته وهمته [١٧]، وأخيرا فإنه كان من الصعب اختيار عرابى ليكون ناظرا ، نظرا لاعتبارات تخص المنصب من ناحية ، وتتعلق به وقتئذ من ناحية أخرى . إذن فإن اختيار البارودى جاء موفقا حيث وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب فى الوقت المناسب .

وأُقصى عثمان رفقى عن نظارة الجهادية ، وأمسك البارودى بزمامها فى أول فبراير ١٨٨١. بالإضافة إلى نظارة الأوقاف التى كانت فى حوزته . وأعد برنامجا شاملا ومتكاملا لإصلاح أوضاع العسكرية ، وشكَّل لجنة تولى رئاستها ، وكان عرابى أحد أعضائها لدراسة الأنظمة والقوانين العسكرية ، وإدخال التعديلات اللازمة عليها، ووضع القواعد لقبول وترقية الضباط واستيداعهم وفصلهم . وبدأت الخطوات العملية فى التنفيذ ، فرفعت المرتبات ، وأصبحت معظم الوجبات تشمل اللحوم والخضار والأرز باللبن وباقى أنواع الحلوى بدلا من الفول والعدس[١٨].

ونتج عن ذلك أن ضعفت سلطة المراقبين الماليين أمام إصرار البارودى على المضى فى خطته، وقد هدَّدهما مردِّدا "إن الهيجان موجود فى الأفكار بين الضباط"[١٩] . واستاء رياض، وفى شهادته أمام لجنة التحقيق عقب هزيمة الثورة ذكر عن البارودى أنه "صار يعطى كل أميرلاى (عميد) نقودا يشترى بها تعيينات وملبوسات عساكر آلايه ، ونحن وسعادة الخديوى لا نعلم شيئا عن ذلك ، وما كان يستأذن عن هذه الإجراءات ، وحيث إنها لم يسبق اتخاذها ، فإنها تغيير كلى فى القواعد الأساسية من شأنها أن تزيد نفوذ هؤلاء الضباط"[٢٠].

وتكوَّن ما يشبه الجهاز السرى بين البارودى والقادة العسكريين لنقل الرسائل بينهما ، وكثرت اجتماعاته بهم ، وجرت أغلبها فى بيت عرابى ، حيث دارت المناقشات ، وتناولت مسألة زيارة عدد الجيش إلى ١٨ ألفا وفقا للفرمان السلطانى . كان فى هذا الوقت ١١ألفا . وبناء الحصون والاستحكامات تحسُّبا لعدوان أجنبى على مصر ، إذ أنه فى ذلك الحين كانت فرنسا قد عقدت العزم على إعلان الحماية على تونس . وخرجت المناقشات عن إطار ما يهم العسكرية

إلى ما هو أوسع ، إذ خاص المجتمعون فى الحديث عن الحياة النيابية . ولم يكن المسئولون يرتاحون لتلك التحركات ، وضاق توفيق ورياض بالبارودي الذى امتلك كل هذه السلطات والتى أصبح بموجبها وكأن العسكريين هم سادة البلاد ، وعليه غدا من الضرورى إسقاط البارودى .

واحتلت مسألة تدبير المكائد والدساس والمؤامرات المكانة ، ولكنها فشلت جميعا بعد أن اكتُشفت وقضى عليها[٢١] . وانعكس ذلك على العسكريين وناظرهم ، فتمسكوا بمواقفهم الصلبة. وعندما أراد رياض أن يرغم البارودى على إبعاد عرابى وعبد العال حلمى وفرقتيهما من القاهرة ، الأول إلى الإسكندرية ، والآخر إلى دمياط ، رفض وأصرَّ على أنه هو المسئول عن الجيش ، ولن يسمح لأى أحد كان بالتدخل فى شئونه ، وفى الوقت نفسه ألحَّ فى طلب زيادته[٢٢]، ليكون الحصن الذى يحمى مصر. أيضا فإن مسألة الدستور شغلته كثيرا ، تلك التى مثَّلت أهمية بالغة لدى المثقفين .

وأصبح لابد من وقفة حازمة من الثنائى ـ الخديوى ورئيس مجلس نظاره ـ لوأد تلك التحركات، ويسجل رياض قوله "لما ضاق الحال بالحضرة الخديوية ، صمَّم على عزل محمود سامى ، وقال علنًا أمامنا ، ما بقى عندى أدنى أُمنية فيه، ولا صبر على بقائه فى النظارة ، فقلت لسعادة الخديوى الأعظم هذا هو الحق"[٢٣] . وأسفرت النتيجة عن عزل البارودى بعد ستة أشهر ونصف الشهر من توليه النظارة وإسنادها إلى داود يكن الجركسى صهر الخديوى والوكيل السابق لنظارة الجهادية ، وذلك فى ١٤ أغسطس ١٨٨١ ، وصدر الأمر للبارودى بتحديد إقامته فى قريته بهدف قطع صلته بالعناصر الثائرة[٢٤] ، ولكن هذا أسفر عن نتيجة عكسية .

واشتدت يد الناظر الجديد على العسكريين ، وتفنَّن فى الانتقام منهم ، ووقف له عرابى بالمرصاد ، وأضحى من الضرورى ليس فقط الإطاحة بهذا الناظر ، وإنما بالنظارة جميعها وعلى رأسها رياض ، وعليه فلابد من التخطيط ، والذى احتل فيه كبار ملاك الأراضى المكان سواء أكانوا أتراك أم مصريين ، وهم المثقفون وأصحاب الصلات والمؤثرون فيما دونهم من أعيان وعمد ومشايخ ، ثم فأنهم يمتلكون الأموال التى تحتاجها التحركات . ومما يذكر فى

هذا الصدد أن البارودى قدم الكثير من ثروته إلى الثورة ولم يبخل عليها[٢٥].

وعقدت الاجتماعات وحضرها عرابى والبارودى ومحمود فهمى وغيرهم ، للبحث عما يجب عمله، كذلك لعبت الصحافة دورها فى شرح وتفسير المبادئ الدسَّتورية وإيجابيات الحياة النيابية ، وألقى عرابى خطبه حول هذا المعنى ، ويعلّق النديم عليها بقوله "لو وُجهت إلى الحديد لذاب... وجعل يده اليمنى محمود سامى الأمين ، ويده اليسرى على فهمى الكرار"[٢٦].

وبجوار الاجتماعات والصحافة والخطابة ، وُزِّعت المنشورات التى هاجمت رياض وأيضا الأجانب المستغلين ، بالإضافة إلى تضمُّنها ميزات الحكم النيابى . وتولى النديم مهمة جمع التوقيعات ، ليكون عرابى نائبا عن الأمة فى عرض مطالبها على الخديو [٢٧] . وفى ذلك الحين تحوَّل توفيق عن رياض ، إذ كان تلاقيهما ضد البارودى ، وبعد إقصائه ، نفر الخديوى من رئيس نظاره صاحب الميول الإنجليزية. ورغبة فى الإطاحة به تراءى له أن يكون التحقيق عن طريق العسكريين ، وعلى الرغم من كراهيته لهم ، فإنه أراد أن يضرب قوة بأخرى ثم يتفرَّغ للباقية ، وهنا أصبحت المسألة متبادلة ، والهدف واحد الخاص باختفاء رياض من على مسرح السياسة . وسعد العسكريون بهذا الاتجاه الذى سيحقق لهم مقاصدهم، ومنها عودة البارودى إلى منصبه .

العودة

جاءت وقفه عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ لتعبَّر عن مطالب الأمة ، إذ أحاطت بالعسكريين جموع الناس التى احتشدت فى الميدان ، لدرجة أن القنصل النمساوى نقل لحكومته ما رآه ، إذ قال :"إن الثورة ليست عسكرية ، بل إنها ثورة شعبية"[٢٨] . ووقف عرابى بين جنده فى مواجهة الخديوى ومن معه من قناصل فى وقت شعر فيه توفيق بضرورة التراجع عما سبق وشجَّعه، ولكن كان السيف قد سبق العزل . وطالب القائد العسكرى بإسقاط النظارة القائمة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى ، وزيادة عدد الجيش إلى القدر المعين فى الفرمان السلطانى ، والتصديق على جميع القوانين العسكرية التى وضعت أثناء نظارة البارودى للجهادية . وبعد مفاوضات بين الطرفين ، ورفض لأسماء عرضت على عرابى ، أصر الأخير على أن يشكل شريف النظارة الجديدة ، وإبَّان

المناقشات أبدى عرابى الرغبة فى عودة الجهادية للبارودى ، وأن يكون أحمد الدره مللى محافظا للقاهرة [٢٩].

وكان لشريف المؤهلات التى جعلت العسكريون يختارونه ، فهو من الأتراك الدستوريين ، وله الدور الإيجابى فى الحزب الوطنى ، والثقل المالى والسياسى والفكرى وغير ذلك . وقد تمنَّع فى البداية حتى لا يُتهم بأنه جاء على أسنة الرماح ، ولكن بناء على تخطيط العسكريين وقبولهم الخضوع للحكومة ، بالإضافة إلى عوامل أخرى قبل شريف النظارة ـ للمرة الثالثة ـ ورد على تهنئة الضباط بقوله "فى علمكم ما قال الأقدمون ، آفة الرئاسة ضعف السياسة، ولا حكومة إلا بقوة، ولا قوة إلا بانقياد الجنود انقياد تاما ، وامتثالهم امتثالا مطلقا"[٣٠].

وكان المعنى مفهوما وينطوى على ألا يتدخل العسكريون فى السياسة ، ومع ذلك طلب عرابى ـ بإصرار ـ من رئيس النظارة أن يكون البارودى ناظرا للجهادية ، ووصفه بأنه يميل للعدل والحرية ، وأن العسكريين لا يثقون إلا به . وبحكم دبلوماسية شريف عرض أن يتولى هو نظارة الجهادية بحكم تربيته وتعليمه العسكرى، فأجابه عرابى بأن اختيارهم وقع عليه ليكون رئيسا للنظار فقط ، وواصل التصميم على طلبه . ويصف شريف ذلك الإلحاح الذى وقع عليه ، وأنه لم يكن راضيا عن تعيين البارودى ، والسبب "لاتحاده وتواطئه مع زمرة العسكرية"[٣١] . ولكنه أذعن فى آخر الأمر ، ربما خشية من انقلاب العسكريين عليه ، وإحلال غيره مكانه.

وأصبح البارودى ناظرا للجهادية فى نظارة الثورة الأولى (١٤ سبتمبر ١٨٨١ – ٤ فبراير ١٨٨٢) ، ورغبة منه فى أن يكون عرابى بجانبه لاستكمال الطريق الثورى ، ضغط على شريف ليشغل منصب وكيل نظارة الجهادية، ويُبيِّن شريف كيف كَلَّل البارودى نجاحه فى ذلك فيذكر "كان محمود سامى متضرِّرا من وجود عرابى برأس الوادى ، وحضر وأورانى أن وجود العرابى هناك مضر ، وأنه لواسطه كونه من الشرقية، فالعربان والأهالى مترددون عليه، وربما تحصل مفاسد من ذلك ، وأن الأوْلى إحضاره لمصر فى وظيفة وكيل الجهادية ، وبوجود هذا يصير إعطاؤه النصائح فى كل وقت ، وبعد توقفى وبناء على استحسان

النظار ، رضيت بذلك التعيين ، على أنه ظهر لى فيما بعد أن استحضاره لمصر ما كان إلا ليساعد الاثنان بوجودهما معا لتنفيذ مآربهما" [٣٢].

وبالفعل مضى هذا الثنائى فى العمل المرسوم ، ولعب البارودى الدور فى التمويه على شريف فيما يتعلق بنشاط العسكريين وتحركاتهم ، فيذكر الأخير أنه "كان يخفى معلوماته من جهة العسكرية ، ويظهر لى حسن سلوكهم وانقيادهم ، ومن جهة ثانية كان يُعطيهم حوادث كل ما يحصل فى مجلس النظار أول بأول"[٣٣].

وعمل البارودى من أجل العسكريين ، فاستكمل ما كان قد بدأه عقب توليه نظارة الجهادية فى المرة الأولى ، فصدرت القوانين التى أرادها ، ووضع نظاما للتعليم العسكرى ، وعرَّج على مسألة زيادة عدد الجيش ، وشجَّعته الصحافة . وحينما جاء الإعداد لميزانية ١٨٨٢ ، طلب إضافة مبلغ ٢٨٠ ألف جنيه للجهادية ، وأصر على رفع عدد الجيش إلى ١٨ ألفا ، وأن تشمل الزيادة جميع الأسلحة ، بيادة وسلاح فرسان وإشارة ومدفعية وسلاح مهندسين [٣٤] . ولكن واجهته عقبة معارضة المراقبين الماليين ، إذ أن أموال الخزانة لا تكفى، بالإضافة إلى رفض لندن لذلك[٣٥].

وعلى الرغم عدم ارتياح شريف لما يقدم عليه البارودى ، فإنه خشى العسكريين ، وأمام موقف ناظر الجهادية المتصلِّب ، رأى إبداء نوع من الملاينة فيقول "وأورانى البارودى أنه ربما تحصل ثورة من الجهادية بسبب ما هو مطلوب... ومنعا لحلول المصايب، تكلمت مع المفتشيْن (المراقبيْن) وعطيت للجهادية علاوة ماية ألف جنيه"[٣٦] . وبعد تدخلات ومفاوضات ، وخوفا من حدوث أية اضطرابات عسكرية ، تم الاتفاق على زيادة عدد الجيش إلى ١٥ ألفا ، وتبعا لذلك ارتفعت ميزانية عام ١٨٨٢ إلى ٥٢٢,٩٦١ جنيها بعد أن كانت ٣٦٨ ألفا عام ١٨٨١ [٣٧] . وبذلك تمكَّن البارودى من أن يكسب هذا النجاح فى تلك الفترة الزمنية القصيرة .

وأسهم ناظر الجهادية فى خطوة الثورة التالية والخاصة بالدستور ، وأُجريت الانتخابات فى ٤ أكتوبر ١٨٨١ ، وجاءت بالعناصر البورچوازية الثورية ، فضمَّت من كان متزعما لحركة المعارضة فى مجلس شورى النواب ، ومن ذوى العصبيات

فى المدن والأقاليم، وأصبح محمد سلطان نائب المنيا – وهو من أكبر ملاك الأراضى المشاركين فى الثورة – رئيسا للمجلس الجديد[٣٨] . وسعدت مصر بذلك ، وعمَّت الفرحة الجميع . ولكن سرعان ما تصدَّعت نظارة شريف بتدخل بريطانيا وفرنسا ، إذ خشيتا على مصالحها مع ذلك النجاح الذى أحرزته الثورة ، فأرسلتا مذكرتهما المشتركة فى ٨ يناير ١٨٨٢ للخديو تسانداه فيها ضد ما يُهدد النظام القائم فى مصر [٣٩] .

وهنا انفعل القادة الثوار ، وسيطر الغضب عليهم ، واجتمعوا فى الديوان ، وحضر إليهم البارودى وهدّأ من روعهم ، ونقل إلى النظَّار الأثر السيئ للمذكرة على نفوس الضباط وما انتابهم من سخط واستياء [٤٠] . وتأجَّج الموقف فى مجلس النواب ، وزادت حدة المعارضة بشأن مسألة الميزانية التى غدت مثارا للخلاف بين الحكومة والمجلس ، وأراد المراقبان الماليان أن تكون تحت تصرفهما ، وكان ذلك فى وقت صدرت فيه لائحة المجلس التى تعطيه الحق فى نظر الميزانية والتصويت عليها . وحدث تدخل خارجى من لندن وباريس ، إذ رفضتا هذا الأمر ، وأيدهما شريف .

ولعب العسكريون الدور فى المعارضة ، وسيطرت عليهم مسألة إسقاط نظارة شريف الذى سجل أن البارودى كان يستقبل كل ليلة المعارضين من النواب أمثال الشريعى وأمين الشمسى وإبراهيم الوكيل ، ويشجعهم على التمسك بما طالبوا به ، وأضاف أنه عند افتتاح مجلس النواب "حضر أمين الشمسى إلى سلطان ومعه رسالة من عرابى مؤداها أن يتوجه إلى البارودى للاتفاق معه على طريقة إسقاط النظارة ، حيث كانت العادة فى أوربا أن النظارة (الوزارة) تسقط عند افتتاح مجلس النواب" [٤١] . والواقع أن الثُوَّار لم يرغبوا فقط فى اتباع المنهج الدستورى الغربى ، ولكنهم كذلك لم يكونوا براضين عن شريف بعد أن عاكس مسيرتهم . وأسفرت النتيجة فى ٤ فبراير ١٨٨٢ على "استعفاء نظارة حضرة دولتو شريف باشا ، وقبول جناب الخديو لذلك" [٤٢].

التألُّق

لم يتمكن توفيق مِنْ اختيار مَنْ يُشكِّل النظارة ، وذلك بعد أن أصبح ضعيفا تتخبَّطه الأمواج ، ولم يعد يخشى من ثورة عسكرية فحسب ، وإنما أيضا من ثورة

شعبية تُطيح بعرشه ، ومن ثم كلَّف لجنة من النواب لتشير عليه برئيس مجلس النظار الجديد . وكان من الطبيعى أن تقع عيونهم على البارودى ، وقد عبَّر الخديو عن هذا الاختيار لمندوبه بالآستانة بأنه "من الذوات الموافقين لأمزجتهم"(٤٣).

السؤال: ما هو مدى صحة ما تردد على بعض الألسنة ، وحمل اتهاما للبارودى بأنه انضم للثورة ليحقق طموحاته فى الوصول إلى قمة السلطة ؟

هناك إشارات تدل على أن مثل هذا القول لا ينطبق تماما على المكنون :

الأولى ـ لقد سبق وأن تولى البارودى نظارة المعارف ثم نظارة الأوقاف ، وذلك قبل قيام الثورة ، مما يعنى أنه على الطريق الموصِّل للمزيد .

الثانية ـ سخطه على الأوضاع المتردِّية القائمة وتحركاته قبل الثورة والتى كانت من الممكن أن تجعله وراء الشمس ، وإيمانه الكامل بمبادئ الثورة التى أسهم فى وضعها ، ويقينه الذى لم يكن يرضى عند التغيير بديلا من أجل رفعه شأن مصر .

الثالثة ـ إن تطبيق المبادئ لن يخرج إلى حيِّز الوجود ، إلا مع منصب قيادى ، يُستغل لصالح المصلحة العامة . ومن هذا المنطلق ، فإن الإمساك بزمام الأمور وتصريفها ، وفقا لأدوات جديدة تحل مكان القديمة ، يسفر عنه قضاء حوائج الناس ، هؤلاء الذين يرزحون ويئنون تحت أحلك الظروف التى تعيشها مصر . أى أن شغل المنصب المرموق يكون لهدف قومى ، وليس لتحقيق طموحات شخصية . ولم يكن هناك ما يعيب فى أن يسعى الإنسان للسلطة ، والتاريخ يذكرنا إنه حتى خلفاء الرسول لم يكن أحد منهم يرفض الرئاسة ، وذلك من أجل الصالح العام .

لقد آمن البارودى بشعار الثورة "مصر للمصريين" ورددده كثيرا، وكذلك بالمبادئ الثورية التى عرفت باسم قواعد الأعمال ، وتمثلت فى:

خديو يملك ولا يحكم ، وبرلمان منتخب ، ونظام إدارى عادل ، ونظام ضرائبى متزن، وإلغاء السخرة وترشيد الإنفاق ، وتحجيم الأجانب ، وإقصاء التدخل الأجنبى ، وبنك وطنى ، وإنقاذ المصريين من المرابين ، وتوحيد الديون

وتخفيض فوائدها ، ونهضة التعليم ، وإحياء الصناعة ، وإصلاح القضاء ، وإلغاء القضاء المختلط ، والإطاحة بالرق [٤٤] . وانتشرت تلك المبادئ ، وأصبح الجميع يتحدث عن الحرية والإخاء والمساواة .

ومرة أخرى يتكرر السؤال : لماذا تم اختيار البارودى لتشكيل نظارة الثورة الثانية (٤ فبراير ١٨٨٢ – ١٧ يونيو ١٨٨٢) ولم يتم اختيار عرابى الذى تفوَّق عليه ؟ وخاصة أن المدة الواقعة بين أول فبراير ١٨٨١ وهو تاريخ تولى البارودى نظارة الجهادية وحتى ٤ فبراير ١٨٨٢ أى صدور الأمر له برئاسة النظارة ، جرت فيها مياه كثيرة تحت الجسور، وحصلت الثورة على مكاسب لم تكن تتوقَّعها ، وغدا عرابى الزعيم الثورى وصاحب الشهرة الفائقة ، والشخصية الكاريزمية التى فرضت نفسها على الساحة .

الواقع أن الاستمرار على المنهج الذى أتى بثماره قد وضع فى الحسبان ، بالإضافة إلى المؤهلات الرصينة التى كان يتمتع بها البارودى ، وأنه الأصلح كواجهة لها ثقلها فى المنصب . وعلى جانب آخر فإن عرابيا آمن بأن النظارة متغيرة والزعامة ثابتة ، زد على ذلك فإنه كان واثقا من مكانته عند البارودى ، وأن كلمته هى المسموعة لدية . ومن غير المؤكد ما يذهب إليه البعض بأن البارودى هو القائد الفعلى والمحرك للثورة ، وأنه يُفضل العمل من وراء ستار ، ويُصدِّر عرابى ويجعله الأداة المنفذة لأغراضه[٤٥] حقيقة أنه له دور رئيسى فى الثورة ، فهو المثقف الراقى الواعى وذو العقلية المستنيرة ، والذى فتح آفاقا جديدة أمام عرابى ، لكنه لم يكن يمتلك مثل مقومات شخصية عرابى من حيث الحضور ولغة التأثير على الجماهير والتى كانت الثورة فى حاجة لها . وأخيرا فإنه لم يكن هناك آنذاك تخطيط بشأن تقديم شخص معين لشغل المنصب الرفيع لاحتمال فشل الثورة ، وبالتالى يأمن الزعيم (عرابى) من عواقب مثل هذا الأمر ، ومن ثم كان تولى البارودى رئاسة مجلس النظار هو المفتاح الذى ستحرز به الثورة النقاط لصالحها .

وقد أكد عرابى أن البارودى أقسم له باستعداده للتضحية فى سبيله ، وأن ينادى به خديويا على مصر إذا رغب فى ذلك ، ولكنه أجابه بأنه لا يريد إلا تحرير بلاده[٤٦] . وبذلك يتضح أنه أضيف لمبادئ الثورة أن يكون الخديو مصريا

لا تركيا ، وفى هذا الصدد بعث القنصل النمساوى لحكومته يُسجِّل "إن رد الفعل أصبح موجهًا ضد الخديو والتدخل الأجنبى والخضوع لتركيا ، وأن الشعب يرى إبعاد الخديو كُلية وأسرته ، وبهذا يمكن القول بأن الحزب (الوطنى) أدى الكثير ، لأنه أصبح قوة لا يستهان بها"[٤٧] . وأضحى تصور الحاكم هو الذى "ينتخب من الذين حسنت سيرتهم من المصريين ، ويكون رجلا عالما فاضلا محبا لوطنه، ويجرى انتخابه بمعرفة رؤساء الأمة ونبهائها الذين لم تدنَّس أعراضهم بالاشتراك فى قبائح الولاة السابقين ، وهذا الحاكم يكون مقيدا بالقوانين ومنفِّذا لها "[٤٨] . معنى هذا أن نتيجة انتخاب الحاكم هى التى ستحدد أهو عرابى أم البارودى ، ولعلّ غيرهما .

على أية حال ، فقد صدر الأمر الخديوى للبارودى لتشكيل مجلس النظار ، ووصف توفيق الرئيس الجديد بكمال الدراية ، وحلية الصدق والاستقامة . وجاء رد البارودى وشمل عرض الواجبات المالية التى على الحكومة بشأن الديون ، وإجراء الإصلاحات الداخلية فيما يتعلق بمجلس النواب الذى تحددت اختصاصاته ، وتنظيم المحاكم القضائية (الأهلية) وإصلاح الأحوال الإدارية ، وتحسين حالة التعليم والتربية ونشر المعارف ، وتسهيل الطرق لنمو الزراعة ، وتوسيع دائرة التجارة والصناعة ، وغير ذلك مما يعود على البلاد بالنفع . واختار البارودى النظَّار من الثوار : عرابى للجهادية والبحرية ، محمود فهمى للأشغال العمومية ، عبد الله فكرى للمعارف العمومية ، حسن شريعى للأوقاف . أما الخارجية والحقانية فأُسندت إلى مصطفى فهمى[٤٩] ، نظرا لإتقانه اللغات. ومن اللافت للنظر أن البارودى لم يستشر الخديو فى الاختيار ، وأصبحت معروفة بأنها النظارة الوطنية النقيَّة .

كانت فاتحة عهد النظارة ، دستور الثورة (اللائحة) الذى تبنَّاه البارودى ، وله البصمات الواضحة عليه ، وقد حدَّد علاقة السلطتين التنفيذية والتشريعية ، وجعل حقوق السيادة مناصفة بين الشعب والخديو ، الذى يمارس سلطاته بواسطة نظار مسئولين ، وأعطى الأمة الحق فى ممارسة سلطاتها بنواب تُسأل أمامهم النظارة ، كما أعطى لمجلس النواب الحقوق ـ وخاصة حق تقرير الميزانية ـ وحدَّد الرقابة عليه ، وتقررت الحصانة البرلمانية، واتسعت مساحة

الانتخابات [٥٠].

واعترض المراقبان الماليان ، ولكن البارودى وقف لهما بالمرصاد ، وبالتالى أصبحا كمية مهملة وانهارت سلطتهما . وفى ظل تأييد البارودى ومساندته القوية وتشجيعه ، مضى مجلس النواب فى عمله البرلمانى ، ولم يُقصر مهمته على ما اختص به ، وإنما انشغل بموضوعات أخرى ، رأى أن الخوض فيها من مصلحة مصر ، ودلَّت على درجة كبيرة من الوعى ، لدرجة أن مالت Malet القنصل البريطانى كتب يقول "إن المجلس وضع أصابعه فى أمور الخديو نفسها"[٥١].

وإيمانا برسالة الإعلام ، وأهمية أن يعى الناس ما يدور فى قاعة المجلس ، طلب النديم من البارودى بأن تنشر محاضر الجلسات فى اللطائف ، وهى صحيفة الثورة الأولى ، فوافق على الفور[٥٢]، أيضا نشرها محمد عبده فى صحيفة الوقائع المصرية التى تحوَّلت هى الأخرى لخدمة الثورة. والواقع أن المجلس لم يترك شيئا أضر بمصر إلا وعرضه ، وهاجم القائمين عليه، حتى اتهمته الدوائر القنصلية بأنه أدار الدفة ضد الأجانب، ليُعلن الحرب عليهم. وقد تم ذلك جمعية بتخطيط ثورى منظم ، كان للبارودى اليد الطولى فيه ، حيث عمل بإخلاص داخل تلك المنظومة الثورية .

وغدا طبيعيا آنئذ الاهتمام بالجيش ، فأُضيف إلى اعتمادات الجهادية ٢٩٠ ألفا من الجنيهات، وفُتح باب الترقى ، فتم ترقية خمسمائة ضابط ، ولم يسع الخديو إلا التصديق على ذلك ، بل ومنح لقب الباشا للحاصلين على رتبة لواء[٥٣] ، وبالطبع لم يكن للضباط الأتراك والچراكسة النصيب فى تلك الأمور ، نظرا لسيطرة النزعة الوطنية على قادة الثورة .

وتمتَّعت النظارة السامية – كما أُطلق عليها آنئذ – بالقوة والسلطة والتأييد الشعبى ، وجعلت نصب عينيها كيفية وضع حد للتدخل الأجنبى ، مما سبب القلق البالغ للأوربيين بصفة عامة ، والإنجليز والفرنسيين بصفة خاصة ، وقد وضحت هذه المسألة جليا فيما خطه القنصل النمساوى لحكومته[٥٤] . واستمعت النظارة لكل شكوى قُدِّمت لها، ووضعت يدها على أمراض المجتمع ، وبذلت قصارى جهدها فى محاولات الإصلاح ، وكان لما أقدمت عليه صدى إيجابى ،

فتبيِّن إحدى وثائق الثورة على لسان البعض "النظارة الوطنية الحرة التى انتخبت (اختيرت) من رجال لنا بهم تمام الثقة ، متوسلين نجاح المقاصد والمشروعات ، وفوز آراء وأفكار مجلس النواب" (٥٥).

وعبَّرت الاحتفالات التى أُقيمت عن الفرحة التى عمَّت أرجاء مصر ، وكان عرابى والبارودى والنديم يخطبون فيها ، ويتعرضون لمساوئ التدخل الأجنبى ، ويلهبون الحماس الوطنى . ومما يذكر أن تأثير الأول والأخير على الناس كان أقوى من تأثير البارودى نظرا لاختلاف النوعية والثقافة . وقامت الصحافة بالمهمة التى وُكلِّت لها ، وذلك بعد أن رأى البارودى التخفيف من قانون المطبوعات لعام ١٨٨١ ، بجعله أولى إلى حرية الكلمة ، وأبعد من قيود العقوبات(٥٦) ، وكان شريف قد أصدر ذلك القانون ، ليحد من الثورية التى أصبحت منهجا لكثير من الصحف فى مرحلة الثورة الأولى .

وأمام تلك الثورة المتوهِّجة التى لم تشهدها مصر فى تاريخها الحديث ، كان لابد للأعداء من أن يُكثِّفوا مجهوداتهم من أجل إخمادهما ، فتآمر الچراكسة ضدها ، ولكن حُبطت أعمالهم ، وصدر الحكم على قادة المؤامرة ، وتضمَّن النفى المؤبد إلى أقاصى السودان ، والتجريد من الرتب والنياشين . وكان من الضرورى أن يُصدِّق الخديو على الحكم ، فرفض لأن أمنيته لم تحقق ، وطلب تدخل السلطان العثمانى ، وأن يبعث بهيئة للتحقيق مرة أخرى ، لأن من المحكوم عليهم يحملون رتبة فريق . وأثير ذلك فى مجلس النظار ، والتقى البارودى قنصلى بريطانيا وفرنسا ، وصرَّح لهما بالقول "إنه إذا وردت أوامر الباب العالى بعدم تجريد المسجونين ، فالنظارة لن تُطيعها ، وإذا حضر وفد عثمانى ، سوف يُمنع من النزول ولو اقتضى الحال استعمال القوة ، وتكون النتيجة قيام ثورة ضد السلطان" فسأله القنصلان عمَّا إذا كان يقول هذا الكلام بصفة رسمية ، فأجاب "نعم بصفة رسمية" (٥٧).

وطلب الباب العالى أن تحال الأوراق عليه ، وفى تلك الأثناء ، وبناء على تدخل القنصل البريطانى وزميله الفرنسى عدَّل الخديو الحكم ، وصدر أمره بتحويل النفى المؤبد إلى بسيط ، وإسقاط التجريد من الرتب والنياشين ، وعلى الفور ذهب البارودى إلى توفيق "ورمى الأمر على الكرسى الذى كان يمين الخديو

، وقال إذا لم يصر تغييره بأمر يقضى تبعيدهم ، ومحو أسمائهم من العسكرية ، فلا يقبله ، وإن لم يحصل التغيير ، فلا يكون الخديو آمنا على حياة نفسه ، ولا على مسند حكومته ، ولا على حياة الأوربيين ، وإنه يحصل مجزرة كبيرة ولا ينفع الخديو فى ذلك لا القناصل ولا نفس الدول " [٥٨] . كانت هذه هى ثورية البارودى الذى تمرد تماما على الجنس الذى كان يوميا ينتمى إليه .

وأصبح لابد من أن تحسم المسألة ، وتغلَّب الرأى المعتدل ، خوفا من التدخل الخارجى وضرب الثورة ، وتم إبعاد المتآمرين الچراكسة إلى سوريا ، ومنها انتقلوا إلى الآستانة [٥٩] . ولكن لم يغفر توفيق تحدى البارودى له ، وأصَّر على إقالة النظارة ، فى الحين الذى وجد فيه القادة أن تصرفات الخديو تعنى الخيانة ، وعليه دعا مجلس النظار مجلس النواب لاجتماع فوق العادة دون صدور أمر خديوى – وهو ما جاء به الدستور – وعندما علم توفيق شكا للصدر الأعظم فى برقية مصرِّحا بأن ذلك خطوة أولى لعزله [٦٠] . وتقرر عقد الاجتماع ، وتوافد النواب على القاهرة ، وتقابلوا مع القادة فى بيت عرابى ، ونوقشت مسألة عزل الخديو ، وسيطر الحماس على المجتمعين ، وعرضوا نفى نسل محمد على ، وأن يُعين البارودى حاكما عاما لحكومة مؤقتة إلى أن ترتب الأمور[٦١]. ولكن جرت محاولة لتهدئة الموقف خشية من التدخل الأجنبى ، أسفر عنها عدم اجتماع مجلس النواب .

وهنا برزت قضية مهمة ، وهى الرؤية حول شكل النظام السياسى عقب عزل الخديو، ففى اجتماع عقد فى بيت حسن موسى العقاد – شهبندر التجَّار وأحد الثوريين – حضره قادة الثورة ، دار الحديث عن أنظمة الحكم ، وتكلم البارودى وذكر "إنه منذ بداية حركتنا ، وهدفنا تحويل مصر إلى جمهورية صغيرة مثل سويسرا ، وحينئذ تنضم إليها سوريا ، ثم تتبعها الحجاز ، ولكننا وجدنا بعض العلماء لم يتقبلوا ذلك ، فهم متأخرون عنا ، لكننا سوف تجعل مصر جمهورية قبل أن نموت ، ولنا كل الأمل فى ذلك[٦٢].

والواقع أن هذا الشكل من الحكم سبق وأن تعرَّض له الأفغانى فى جلساته مع حوارييه والذين تبنُّوا الكثير من أفكاره ، وكانت نبراسا لهم عندما قرروا الإقدام على العمل الثورى . أيضا فقد تداول بعض الناس الحديث عنه ، ففى

خطاب من مأمور ضبطية مصر إلى عرابى يخبره بما ذهب إليه القول بأنه "بعد عزل الخديوى ، ستطلب الأهالى تنصيب حكومة جمهورية يكون رئيسها سعادة أحمد باشا عرابى" (٦٣) . كذلك فهناك الأوراق الخاصة بالثورة والتى تخاطب عرابى وتلقبه برئيس الجمهورية (٦٤) . هذا بالإضافة إلى أن عرابيا كان يردد أن مصر سوف تصبح جمهورية مستقلة ، مدلّلا على ذلك بقوله "إن القوة العسكرية أمست بيدنا وتحت أمرنا ، ومشايخ العربان وعمد البلاد انحازوا إلينا ، وصاروا من حزبنا" (٦٥) . وفى خطاب من محمد عبده إلى صديقه بلنت Blunt يؤكد له "البلاد جميعها مع عرابى والناظر سامى ، الفلاحون والبدو والعلماء متحدون، وليس بيننا غير واحد فقط ضد الحرية المصرية"(٦٥) ، والمقصود الخديو .

معنى هذا أن النظام الجمهورى مثل أمام أعين رجال الثورة ، ولكنهم فى الوقت ذاته كانوا مدركين صعوبة التنفيذ وقتئذ ، فهناك التزامات دولية منذ تسوية ١٨٤٠ /١٨٤١ جعلت مصر مرتبطة بالدولة العثمانية ، كما أن علاقتهم لم تكن واضحة معها ، حيث إنها تلوَّنت من آن لآخر ، أى أنه أحيانا وجدوا فيها العون للتخلص مما أصاب مصر اعتمادا على مسئوليتها إزاء ذلك ، وخاصة مسألة تبديل توفيق بغيره ، وكان قد ظهر على الساحة الأمير محمد عبد الحليم الذى سعى للخديوية ، أيضا لم يغب عن هؤلاء القادة أن يُعيَّن عرابى أو البارودى خديويا على مصر ، من هنا جاءت صلاتهم مع الدولة صاحبة السيادة الشرعية على مصر. وأحيانا كثيرة تمرَّدوا عليها ، وراودهم الأمل فى أن تعود الخلافة للعرب ، ويكون مقرها مصر ، وعليه تصبح مصر للمصريين لا لغيرهم ، ويسدل الستار عن علاقتها بالآستانة .

ويذكر شاهد عيان أن الثوار يسعون للاستفادة من السلطان عبد الحميد الثانى ، وأنه عندما يصلون إلى القوة التى تؤهلهم للاستقلال ، سوف يعلنون الجمهورية، ويُسطِّر القول "لقد أكد لى محمود باشا سامى فى حضور نديم وعبده بأنه لن توافيهم المنية قبل أن يعلنوا استقلال مصر عن الباب العالى والمناداة بالجمهورية" (٦٧) .ومن ثم فإن قادة الثورة ، رأوا أن أرضا عربية كمصر لا تحكم بتركى أو غيره ، وقد علَّق ملنر Milner على هذا الاتجاه بقوله "إنهم يريدون انتزاع الشجرة من جذورها" (٦٨) هذا ويجب أن نضع فى الحسبان أن

فترة الثورة القصيرة ، والأحداث المتلاحقة ، لم تعطيا الثوار الفرصة الكاملة للتفكير الجدى ومواجهة الصعوبات الخارجية من أجل التنفيذ .

وبصفة عامة ، فإنه لم يكن ما يصدر عن نظارة البارودى لتقبله لندن وباريس ، ووضح موقف قنصليهما من شد أزر توفيق فى تصميمه على إسقاطها ، وقد رأى التآلف الأنجلو فرنسى ضرورة وضع حد لهذا العبث الوطنى ـ كما أطلقا عليه ـ قبل استفحال الأمور ، وأن ذلك لن يتأتى إلا بالقوة ، وأعلنت لندن وباريس فى ١٤ مايو ١٨٨٢ عن عقدهما العزم على إرسال قطعا من أسطوليهما إلى الإسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية لمساندة الخديو ، وإنه إذا استدعى الأمر يكون استخدام القوة [٦٩].

وازداد حنق العسكريين ، وأراد أحد الضباط محاصرة الخديو فى سراى الإسماعيلية ، ولكن البارودى وجد أن الموقف فى حاجة إلى مزيد من الدراسة[٧٠] والواقع إن الإعلان عن نية التدخل الحربى الأجنبى وتعاونه مع توفيق قد خلق تلاحما قويا من أجل الصمود أمام العدوان ، وفى غرفة خاصة لعلى فهمى بقشلاق عابدين ، ضمت القادة العسكريين ـ عرابى، البارودى، عبدالعال حلمى، طلبة عصمت، يعقوب سامى، على الروبى، على فهمى، محمد عبيد، أحمد عبد الغفار محمد الزمر، حسن جاد، على يوسف، محمود فهمى، ومثَّل محمد عبده المثقفين المدنيين ـ أعلن البارودى عن مغزى اللقاء وأشار إلى وصول القطع البحرية الإنجليزية والفرنسية "وأن القصد من الاجتماع أن نحلف يمين على أنه إذا حصل حرب ، فنكون يدا واحدة مع بعض ، وأن من يفشى السر ، تُشق بطنه ، ويُقطَّع إربا ويلقى" ووضعت أيدى المجتمعين على المصحف، وتم القسم بصوت واحد تردد وراء صوت محمد عبده [٧١].

وفى ذلك الوقت أجرت بريطانيا وفرنسا بعض المحاولات ، على أمل أن تأتى بنتيجة لصالحهما ، ووكَّلتا الأمر إلى قنصليهما ، فسعيا لإقناع البارودى وزملائه بالانسحاب ومغادرة مصر ، لكنهما فشلا [٧٢] . وعندئذ قدم القنصلان مذكرة مشتركة فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ إلى الخديو ورئيس مجلس النظار ، تضمَّنت إبعاد عرابى مؤقتا عن مصر مع بقاء رتبة ومرتبه ، وإرسال على فهمى ، عبد العال حلمى إلى خارج القاهرة ، واستقالة النظارة ، ونصحا البارودى بقبولها ،

وأنه فى حالة معارضته ، سيقدمان على تنفيذ ما جاء بها . وعلى الفور اجتمع البارودى بمجلس نُظَّاره ، وشجب التدخل فى شئون مصر الداخلية ، وبالتالى تم رفض تلبية المطلوب (٧٣) . حدث ذلك فى وقت إعلان الخديو قبول المذكرة ، وعليه أثر موقفه على البارودى الذى قدم استقالة نظارته فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ ، وسبَّبها بمخالفة الخديو لما أجمع عليه رأى النظار(٧٤) . وبذلك ترك البارودى الرئاسة ، حيث أصبح له مكان آخر على موقع الخريطة الثورية .

الطريق إلى الانكسار

تُمِّثل الفترة منذ استقالة نظارة البارودى وحتى ١٤ سبتمبر من العام نفسه أهم فترات الثورة ، إذ تكثَّفت فيها القوى المضادة لها ، والتى انتصرت عليها فى نهاية الأمر ، ومع هذا فقد قاومت . وكانت البداية خروج بعض كبار الملاك من المسيرة الثورية ـ عندما أدركوا أن مصالحهم أصبحت تتعارض والاستمرار فيها وخاصة فى أعقاب تلك الإجراءات التى اتخذها البارودى أثناء رئاسته لمجلس النظار ـ ثم تبع ذلك سلسلة من الأحداث التى حاربت الثورة.

وسيطرت فكرة عزل توفيق على قادة الثورة ، وكان لابد من التخطيط لها ، وكثرت الاجتماعات فى بيت البارودى ، وضمت " العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وأعضاء المجلس (النواب) ، وتكلموا فى خلع الخديو وتنزيله ، وفيمن تصبح ولايته"(٧٥) . وكان توفيق قد أخذ على عاتقه مهام النظارة ، وجمع بعض النواب والعلماء والضباط ، وأعلمهم بالوضع الجديد ، وهدَّدهم فيما يختص بالأمن ، فاعترض كل من يعقوب سامى وطلبة عصمت ، وتوجها إلى قشلاق عابدين حيث عرابى والبارودى للمشاورة فى الأمر (٧٦) . وهنا أعلن عرابى أنه استعفى من نظارة الجهادية ، لكنه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى وهذا ما كان حريصا عليه ، وذلك فى وقت انهالت فيه البرقيات على توفيق التى عبرت عن الرغبة فى "عودة النظارة السامية التى لا يرغبون عنها بديلا" (٧٧).

وفى اجتماع عُقد بمنزل سلطان ، حضر عرابى وعدد كبير من العسكريين ، وأعلن عن ضرورة عزل الخديوى وهدد وتوعّد ، وعندئذ تولى سلطان وبعض من المجتمعين المعارضة ، وانتهت الاجتماع لينتقل إلى بيت البارودى الذى كان ينتظر قرار العزل ومعه آخرون ، ودارت المناقشات ، وتوصَّلت إلى أنه إذا لم

يرفض الخديوى مذكرة بريطانيا وفرنسا المشتركة ، ويعيد عرابى إلى منصبه يُعزل [٧٨] . وحرصا على عدم الإخلال بالأمن ، وتأكيدا لما ذكره القناصل لتوفيق أن عرابيا بيده الأمر ، وبوصول برقية السلطان التى تفيد بذلك أيضا ، بالإضافة إلى ما بذله الوفد المختار الذى تشكّل ليقنع الخديو بالموافقة ، عاد عرابى إلى نظارة الجهادية – دون مجلس نظار – فى ٢٨ مايو ١٨٨٢ [٧٩]، والذى لم يقتصر نفوذه عليها ، وإنما امتد لخارجها .

وإبَّان هذه الظروف ، وقعت مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيه ١٨٨٢ بين السكندريين والأجانب ، تلك التى أشعلت الموقف ، وفى أعقابها بستة أيام ، تشكلَّت نظارة راغب ـ وله الدور فى الثورة ـ وتُعد نظارة الثورة الثالثة ، ودخلها نظَّار ثوريون [٨٠]، وكانت مؤيدة من البارودى وباقى العسكريين .

ومضى قادة الثورة فى الاستعدادات لمواجهة القطع البحرية وخاصة البريطانية المتربِّصة بقرب سواحل الإسكندرية ، ورفضوا أوامر توفيق المعارضة لذلك ، وهنا لم يغب عن ذهنهم إمكانية الحل السلمى ، بمعنى التفاهم مع بريطانيا وعرض القضية المصرية وإجراء المفاوضات للوصول إلى حل معها ، وذلك إما بحضور مبعوث بريطانى لرؤية الموقف على حقيقته ، وكان ذلك اقتراحا من الحزب الوطنى وأيَّده البارودى فى البداية، وإما أن يسافر محمد عبده إلى لندن لأداء المهمة نفسها ، وحبَّذ البارودى هذه الفكرة تماما ، وأبدى هو الآخر استعداه للسفر والسعى فى هذا المجال [٨١] . ولكن كما يبدو أن ذلك لم يلق القبول من لندن التى كانت لها حساباتها الأخرى .

وتوالت تهديدات وإنذارات قائد الأسطول البريطانى بوقف النشاط العسكرى بطوابى الإسكندرية ، ورفض القادة رغم يقينهم من عجز استعداداتها الحربية . وضُربت المدينة فى ١١ يوليو ١٨٨٢ ، وانسحبت قوات الدفاع ، وسرعان ما أُخرجت ، وهناك اعترافات فى أوراق الثورة تشير إلى أن عرابيا والبارودى تحدثا فى حرقها ، والسبب "أنه إذا خرج الإنجليز إلى البلد لا يجدون شيئا ولا حتى طريق يمرون منه"[٨٢] ، أى إعاقة تقدمهم . هذا بالإضافة إلى أن الحريق نال أملاك الأوربيين ، ولذلك أيضا مقصده .

وأصدر الخديو أوامره بوقف القتال ، وردا عليها ، قرر قادة الثورة عقد

اجتماع بنظارة الداخلية يضم رموز الأمة فى شكل مجلس وطنى ، لتقييم تصرفات توفيق ، والنظر فى مدى صلاحية توليه الحكم لأمة إسلامية ، وجواز ما قام به شرعا [٨٣] ، أى تواطؤه مع الإنجليز . واجتمع المجلس فى ١٧ يوليو وحضره عدد كبير من بينهم البارودى ، وطلب محمد عبده عزل الخديو ، وأعلن الشيخ عليش خلعه ، ولكن تشكك البعض فى الوضع مثل على مبارك ، والنتيجة الفشل .

أعقب ذلك أن تكوَّن مجلس عرفى ، وُكِّل إليه اختصاص الحكومة ، ولم يدخله البارودى ، وإنما كان الأعضاء يستشيرونه ، وما لبث أن أصدر الخديو أمره بعزل عرابى من نظارة الجهادية فى ٢٠ يوليو ، فاجتمع المجلس للبت فى هذا الأمر ، واتفق المجتمعون على رفضه ، وفى ذلك المعنى المفهوم ، أى أن توفيقا لم يعد له أى كيان ، وأصبح شبه معزول ، لكن لم تصدر فتوى شرعية فى هذا الصدد[٨٤].

ولم يستسلم قادة الثورة ، وأصدر عرابى أمره لجنوده بإحراق قصر الرمل حيث وجود توفيق ، الذى تمكَّن من إغراء الموكِّل لهم المهمة ، بل إنهم تولوا حراسته حتى انتقل إلى قصر رأس التين ليكون فى حماية السفن البريطانية . وبطبيعة الحال ، فقد استاء عرابى والبارودى من ضياع تلك الفرصة [٨٥] . وفى تلك الأثناء ، وبناء على رغبة القنصل البريطانى، استقالت نظارة راغب ، بعد أن لُمس منها معاكسة السياسة البريطانية، وتم تكليف شريف بتشكيل نظارته الرابعة (٢١ أغسطس ١٨٨٢ - ١٠ يناير ١٨٨٤).

وفشلت القوات البريطانية فى التقدم إلى القاهرة من ناحية الغرب ، حيث انتصر المصريون ، فاتجهوا للشرق واحتلوا قناة السويس ، وضُرب بحيادها عرض الحائط ، وسقطت فى أيديهم المدن تباعا ، ولعبت الخيانة دورها فى إذكاء روح الضعفاء . وعند محاولة استرداد القصَّاصين ، فشلت الخطة المتقنة التى كان البارودى سينفِّذها لتطويق الإنجليز عن طريق الصالحية ، وذلك بعد أن أبلغها لهم الأميرلاى (العميد) على يوسف (خنفس) [٨٦] . وفى الوقت ذاته ، فقد ضلَّ البارودى الطريق ولم يصل فى الوقت المعين ، وإنما متأخرا ، وساءت حالة معسكره تماما ، ولم يتمكن من جمع شمل قواته ، وسرعان ما بدأت النهاية فى

معركة التل الكبير ، وقد دافع عنها المصريون بشجاعة شهدت لها التقارير الأجنبية ، وفى الحين نفسه صدر منشور السلطان بعصيان عرابى ، وبذلك أصبحت هزيمة الثورة أمرا مسلَّما به.

ولم يفتر حماس البارودى ، ورأى استمرار المقاومة حتى لو اضطر الأمر للانسحاب إلى الصعيد أو السودان ، وشحْن جميع المراكب ذخيرة وتعيينات ، وإدارة دفة الحرب من هناك ، وإغراق أراضى الشرقية والقليوبية ، وذلك لمنع تقدم الإنجليز للقاهرة ، وأرسل لعرابى بذلك ، الذى خشى من تضرر الأهالى فى حالة التنفيذ [٨٧] . وبينما المناقشات تدور ، وصلت القوات البريطانية إلى العباسية فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ليبدأ الاحتلال البريطانى لمصر.

العقاب

أُجهضت الثورة التى استمرت ما يقرب من تسعة عشر شهرا ونصف الشهر ، وسلَّم عرابى سيفه ونفسه للقائد البريطانى كأسير حرب . أما البارودى فلم يفعل ذلك قائلا "إنى ذاهب إلى بيتى فإن أرادونى - أى الإنجليز - فإنهم يعرفون أين يجدونى". [٨٨] وقبض عليه، وأودع بالسجن ، وتعرض للانتقام - مثله كباقى زملائه - على أيدى الچراكسة والأغوات القواصة من الأتراك ، وذلك بفضل توصيات رياض. وتشكَّلت لجان التحقيق ، وأُنشئت محكمتان عسكريتان بالقاهرة والإسكندرية لمحاكمة الثوار ، وكانت لبريطانيا الكلمة النهائية ، وخلاصة سياستها إقصاء الإعدام ، لاعتبارات أهمها عدم إثارة المسلمين فى إمبراطوريتها ، وقدَّم بلنت - صديق قادة الثورة - مساعدته فيما يتعلق بالدفاع ، وتم اختيار المدافعين من المحامين المشهورين فى بريطانيا ، ولم يكن ذلك يتفق مع رغبة الخديو والمحيطين به .

وصدرت أحكام المحكمة العسكرية بالقصاص فى ٣ ديسمبر ١٨٨٢ بعد أن وجهت تهمة العصيان لكل من عرابى ، والبارودى ، وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى ، وطلبة عصمت ، ومحمود فهمى ، ويعقوب سامى ، وفى اليوم ذاته صدر الأمر الخديوى ليحل حكم النفى المؤبد مكان الإعدام ، والتجريد من الرتب والنياشين والألقاب ، ومصادرة الأملاك - الأراضى والمنازل والمجوهرات - والحرمان من الحقوق المدنية والميراث [٨٩].

وقَّدم البارودى تعهدا بأن يقيم فى المكان الذى تعينه الحكومة ، ثم اشترك مع زملائه فى تعهد جماعى. وبعد مزيد من المباحثات ، استقر الرأى البريطانى على اختيار جزيرة سيلان ـ عرفت أيضا باسم سرنديب وهى سيريلانكا فيما بعد ـ لتكون المنفى الذى يستقر فيه الثوار السبعة .

وأعَّد البارودى نفسه للسفر ، ولم يرافقه سوى ثلاثة من خدمة ، وترك زوجته . واستقل المنفيون القطار حتى السويس ، حيث أبحروا إلى مقرهم الأخير فى ٢٧ ديسمبر ، ووصلوا إلى كولومبو فى ١٠ يناير ١٨٨٣ ، وهو ميناء ترتفع فيه نسبة المسلمين ، الذين استقبلوهم بالترحاب . واختار البارودى أن يكون سكنه مع محمود فهمى [٩٠] . ولعلّ النتائج التى ترتبت على الهزيمة ، قد باعدت بين البارودى وعرابى .

ومنذ اللحظة الأولى ، خضع المنفيون للرقابة البريطانية ، إذ خشيت كل من وزارتى المستعمرات والهند من أية اتصالات تجرى بينهم وبين الهنود . أيضا فُرضت الرقابة على مراسلاتهم إلى مصر ، وكان طبيعيا أن يكون التركيز على عرابى ، ومن ثم فإن البارودى لم يشغل المسئولين الإنجليز بالقدر الكافى ، وبالتالى لم يتعرض للمضايقات . وربطت العلاقات بين المنفيين وغير المسئولين من البريطانيين ، وبرز بلنت على الساحة ، وقدم المساعدات لهم، وعندما حضر إلى سيلان ، كانت له الجلسات الطويلة مع البارودى والتى نقل ما دار فيها إلى نائب حاكم المستعمرة [٩١] .كذلك راسل المنفيون برودلى Broad-ley وهو المحامى الأول الذى دافع عنهم ، وأحيانا كانت خطاباتهم له جماعية[٩٢]، فقد توقعوا أن يساعدهم فى إطلاق سراحهم .

وتوافدت التقارير من مفتش عام البوليس عن المنفيين ، وفى أحدها يبدأ ببيان أهمية شخصية كل من عرابى والبارودى ، وإنهما يعدان الزعيمين ، وإنه فى اللقاءات الرسمية ، يُوقِّع البارودى أولا ثم يتبعه عرابى وباقى المنفيين ، وعند الدخول يُتَّبع النظام نفسه ، ويشغل البارودى المقعد الرئيسى ويصبح فى المقدمة ، وفى نهاية التقرير يصفه كاتبه بأنه رجل أصيل [٩٢].

وعانى المنفيون جميعهم من ضعف المرتبات ، إذ كانت الحكومة المصرية قد قررت ثلاثين جنيها مصروفا شهريا لكل واحد منهم ، وعندما أرسلت لهم

منحة لتوزع عليهم نتيجة معاناتهم ، لم ينل البارودى وعلى فهمى منها شيئا ، على أساس أن زوجتيهما لهما ممتلكات تسمح لهما بالعيش ـ كان إيراد زوجة البارودى ٣٠٠٠ جنيه سنويا ـ ولكن فى نهاية الأمر، وزع عليهما بضعة روبيات[٩٤]. ومن الملاحظ أن البارودى لم يكن ملحاً فى شكاياه ، رغم تلك السندات المحرِّرة منه لدائنين أجانب ولبعض أقاربه [٩٥]وعادت الحكومة المصرية ووافقت على منحة أخرى وُزِّعت عليهم .

واختلف قادة الأمس المتحابين فيما بينهم ، وفرضت المنازعات نفسها عليهم ، وهو أمر طبيعى فى ظل ظروف هزيمة الثورة ، ولم يفتخروا بما قاموا به ، وتراجع بعضهم ، ويصرِّح البارودى ومعه طلبة عصمت ويعقوب سامى بأن ما أقدموا عليه كان خوفا من عرابى [٩٦] ، ولم يكن ذلك بواقع . واتسع نطاق المشاحنات بينهم ، حتى إن النديم يبعث إليهم بقوله "ائتلفوا قبل الإياب ، واقتلوا الضغائن بالعقاب ، وحققوا لمن عندكم ترك العدوان ، حتى تتركوا لكم ذكرا جميلا فى سيلان" [٩٧].

وانحصر نشاط البارودى فى تدريس اللغة العربية وعلوم الدين فى دور العلم التى أُنشئت بفضل مجهود عرابى . وجاءت فرصة قرب الاحتفال باليوبيل للملكة فيكتوريا Victoria، ليطلب المنفيون العفو عنهم بهذه المناسبة ، فكتبوا التماسا جماعيا ، وبعثوا به إلى لندن فى ٢٠ يناير ١٨٨٧ ، وشمل وصفا تفصيليا لسوء حالتهم ورغبتهم الملحة فى العودة إلى مصر . وعلى الرغم من أن ذلك لم يأت بنتيجة ، فإن الالتماسات واصلت طريقها .

وازدادت الأحوال سوءا ، وأُصيب البارودى بالإحباط ، وكره سيلان ومن عليها ، ووضح ذلك فى أبياته التى تناول فيها "أهل سرنديب" [٩٨] ، كما عكست أشعاره حنينه للحياة على أرض وطنه ، وسجَّلت أشواقه لأهله وناسه ، ومعاناته من الفراق والغربة والأوجاع ، وشكواه من الزمن وغدره ونفاقه وظلمه ، أيضا ترجمت أحاسيسه بأن المخلصين للوطن مضطهدون ، وأن الشرفاء يقاومون وتنزل بهم العقوبة ، كذلك أظهرت تخاذله وانقلابه على الثورة ورجالها ، محاولا التنصل من تبعاتها ، مبرئا نفسه من أحداثها ، مكيلا التهم لأتباعها .

وفى عام ١٨٩٢ عاد حزب الأحرار للحكم فى بريطانيا ، وانتقل توفيق الذى

ذاق الأمـرين من الثـورة إلى جـوار ريه ، واعـتلى عـبـاس حلمى الثـانى أريكة الخديوية ، وغدا الأمل معقودا على عودة المنفيين إلى مصر ، ونشط بلنت فى السعى لتحقيق ذلك . وفى مايو ١٨٩٧ أرسل البارودى وطلبه عصمت ويعقوب سامى التماساتهم التى تعدَّدت جهاتها ، إلى الملكة ڤيكتوريا وإلى رئيس وزرائها وإلى كرومر المعتمد البريطانى فى مصر، يستعرضون قضيتهم وما يقاسونه فى المنفى ، وكيف تقدَّم بهم العمر ، وأصبحوا لا حول لهم ولا قوة ، وأن ما يُخشى معه أن يفعلوه قد اندثر تماما [٩٩] ولم يثمر ذلك عن أية ايجابية .

وساءت الحالة الصحية للبارودى ، وكتب مفتش عام الصحة تقريرا عنه ، ذكر فيه أنه يعانى من جلوكوما Glucomma فى عينيه ـ ارتفاع ضغطهما ـ أزمنت معه ، وأن عينه اليمنى كادت أن تفقد البصر ، ولا تقوى عينه اليسرى على عد أصبع اليد ، وأن هذا المرض ليس له علاج ، وينتهى بالعمى لتمزُّق القرنية ، وأنه يعانى من اكتئاب نفسى راسخ وشديد ، نتيجة مرضه ووحدته بأرض أجنبية ، ولذلك أثره السيئ فى النهاية ، بالإضافة إلى ذلك الصمم الذى راح يزحف على أذنيه . ويرفق حاكم سيلان هذا التقرير بكتاب للندن يؤكد فيه على تدهور صحة البارودى، فتُحوِّل المسألة إلى كرومر بالقاهرة لإجراء اللازم ، ويعرض الأمر على عباس حلمى بعد أن أدخل الباقين من المنفيين مع البارودى ، ولكن الخديو لم يوافق إلا على عودة البارودى فقط على وجه السرعة . وفى ١٢ يوليو ١٨٩٩ تكتب الخارجية البريطانية إلى وزارة المستعمرات لتُفيدها بالعفو الخديوى عن البارودى الذى يُبلَّغ على الفور ، فيُسطِّر خطاب شكر لكل من الملكة ڤيكتوريا والخديو عباس حلمى الثانى[١٠٠] . ويرحل البارودى عن سيلان ويعود إلى وطنه بعد أن أصبح فى ضعف ووهن ، ليسدل الستار عن آخر مشهد نتج عن تبعات اشتراكه فى الثورة العرابية .

وفى ١٧ مايو ١٩٠٠ أصدر الخديو أمره إلى رئاسة مجلس النظار بمنح البارودى الحقوق المدنية وجواز امتلاكه ، وأن ترد إليه أملاكه الموقوفة[١٠١]. وكان الوحيد من بين المنفيين الذى نال رضاه، ومن المحتمل أن سابق علاقة البارودى إبَّان مقتبل حياته العملية بالخديو إسماعيل ، وانتمائه للمستوى الاجتماعى الراقى ، قد تكونا من الأمور التى وضعها الخديو أمام عينيه . ولم

تمض إلا سنوات قليلة قضاها البارودى على أرض مصر يعانى من الانكسار، إلا ووارى جسده ثراها مع نهاية عام ١٩٠٤ .

خاتمة

كانت هذه رحلة البارودى مع الثورة الوطنية ١٨٨٢/١٨٨١ المعروفة بالثورة العرابية، والتى تُعد أول ثورة دستورية فى المنطقة ، وهى تمثل أهمية بالغة فى تاريخ الثورات المصرية ، حقيقة أنها قامت على أكتاف الجيش الذى ألقى على عاتقه مهمة التغيير ، وبالتالى تحول الأمر سريعا إلى ثورة شاملة ، حملت الأسس التى ضمَّت بين دفَّتيها حتمية إقصاء الأوضاع التى آلت إليها مصر بكل محتواها . وقد كوَّن البارودى ركيزة أساسية فى تلك الثورة ، لما يمتلكه من إمكانات جمعت بين الثقافة والسياسة والسلاح ، فضلا عن الحزم والذكاء والشجاعة ، فكان الشريك الفعَّال مع عرابى فى وضع المخططات الثورية التى ضمت باقى الثوار سواء أكانوا عسكريين أم مدنيين ، وكثيرا ما قام بدور الدليل والهادى والمعلم ، ويمكن القول إنه الرجل الوحيد الذى وصل بنفوذه إلى مقام عرابى ، وإن لم ينل شهرة الزعيم الذى امتلك مفتاح الشخصية الكاريزمية .

ولكن لابد من ذكر أنه كانت هناك مآخذ على قادة الثورة بما فيهم البارودى ، والتى أسهمت فى هزيمة الثورة، ومنها عدم فهم فن ألاعيب المخططات الخارجية ، ومنها تلك الثقة المتناهية فى النفس دون الاعتراف بنقاط الضعف ، ومنها الأمان الذى أُعطى للآخرين واستغلوه بالسلب وليس بالإيجاب ، ومنها التردُّد فى مواقف تحتاج للحسم الفورى . وعلى الرغم ذلك فإن للثورة مكانتها فى التاريخ ، وللبارودى مواقفه الوطنية التى دوِّنت باسمه فى سجلات تاريخ مصر الحديث.

الهوامش

(١) لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، ط٢ ، مكتبة مدبولى، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٠٧ .

(٢) زغلول، سعد، مذكرات، كراسة ٣٦ ، ٢١ يوليو ١٩٢٠، ص , ٢٠٦٠

(٣) كرم، فؤاد ، النظارات والوزارات ، جـ١، مركز وثائق وتاريخ مصر ، دار الكتب ، ١٩٦٩ ، ص ص ٨٩-٩٦ .

(4) Shölch, A., Egypt for the Egyptians, The Socio-Political Crisis in Egypt 1878-1882, St Antony's College Middle East Monographs, London, 1981, P. 28.

(5) Chaille' - Long - Bey, Les Trois Prophétes: Le Mahdi, Gordon, Arabi, Second Edition, London, 1906, P. 112.

(٦) عرابى، أحمد، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية، مذكرات مخطوطة ، جـ١ ، ص ٣١ .

(٧) مرآة الشرق ن عدد ٢٤ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ ، الوقت عدد ٦٢٠ فى ١٩ مايو ١٨٧٩ .

(٨) حسن طلب، مختارات من شعر محمود سامى البارودى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٤ ، ص ٩٩ .

(٩) لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، Shölch, op. cit, p. 121.

(١٠) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٢٤ مايو ١٨٨٢ .

(١١) النقاش ، سليم ، مصر للمصريين ، جـ٤، الإسكندرية ، ١٨٨٤ ، ص ص ٨٣ ، ٨٤ ، Documents Diplomatique Française, Tom IIII, No., 5, de Ring- Barthélemy, 1 Fev. 1881.

(12) Broadley, Trial And Pardon of Arabi Pacha, Vol. II.

(13) Doc. Dip., op. cit.

(١٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١ أ ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ .

(15) Doc. Dep. F. op. cit, Shölch, op. cit, p. 142

(١٦) شاروبيم ، ميخائيل ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، جـ٤ ، ط١، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٠ ، ص ٢٣٣ . سحبت فرنسا قنصلها بناء على طلب الخديو .

(17) Egypt No. 1 (1880), No 3, July 5, 1879, p. 11.

(١٨)عبد الرحمن الرافعى ، الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، ط ٣، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٦، ص ١١٤ .

(١٩) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار، محفظة ٥/و، محضر ١٢، ١٣ أبريل ١٨٨١ .

(٢٠) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ٠٢٠٩ .

(٢١) لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، ص ١٦٩ .

(22) The Times, Aug. 12, 1882.

(٢٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ٠٢٠٩ .

(24) Duse, M., In The Land of the Pharaohs, 1st Edition, London, 1911, p. 37.

(25) Ibid, p. 77.

(٢٦) النديم ، عبد الله ، مذكرات جمعها محمد أحمد خلف الله تحت عنوان "عبد الله النديم ومذكراته السياسية" ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٥٨ .

(٢٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ .

(٢٨) لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، ص ١٨٠ .

(29) Egypt, No. 3 (1882), No. 2, Cookson - Granville, Cairo, Sept. 10, 1881, p. 1, Malet, S. E., Egypt 1879-1882, London, p. 141.

(٣٠) الوقائع المصرية ، عدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٣٢) المصدر نفسه .

(٣٣) المصدر نفسه .

(34) Polit, Ach, Alex. No. 152/pol. Dec. 18, 1881.

(35) Ibid, Malet, op. cit., p. 202.

(٣٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٣٧) روذشتين، تيودور، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ ـ ١٩١٠، ترجمة عبد الحميد العبادى، محمد بدران، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٣، ص ١٣٥، Affaires etrangeres, LXXXII, No. 8, 25 Dec. 1881, p. 6.

(٣٨) الوقائع المصرية ، عدد ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣٩) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٣١ .

(٤٠) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص ٢١٧ .

(٤١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٤٢) كرم ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٤٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ملف ثابت باشا ، ٤ فبراير ١٨٨٢ .

(44) Broadley, op. cit, vol. II, Ninet, J., Arabi Pacha, Paris, 1884, pp. 322-324, Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, second Edition , London, 1907, p. 580.

(45) Wallace, D. M., Egypt and the Egyption Question, London, 1883, p. 118, Ma-

let, op. cit., p. 150, Freycient, de, la Question d'Egypte, Deuxième Edition, Paris, 1904, p. 229.

(٤٦) عرابى ، كشف الستار... ، ص ١٦٨ .

(47) Archives de maison, de Cour et d' etat, No. 41, 9 Feb. 1882.

(48) Broadley, op. cit, vol. II.

(٤٩) كرم ، المصدر السابق ، ص ص ١٠٥– ١٠٨ .

(٥٠) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٠ فى ٩ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ، النقاش ، المصدر السابق ، ص ص ٢٢٧–٢٣٢ .

(51) Malet, op. cit., 163.

(٥٢) النقاش ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٨ .

(٥٣) The Times, April 1st, 1882، شفيق، أحمد، مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، مطبعة مصر، ١٩٣٤، ص ١٣٤ .

(54) Archives de maison, de Cour et d' etat, No. 46, pol, 19 Feb. 1882.

(٥٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/ب.

(٥٦) مصر ، عدد ١١ فى ٨ مارس ١٨٨٢ .

(٥٧) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ملف ثابت باشا ، ٩ مايو ١٨٨٢ .

(٥٨) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/أ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١١٠ .

(٥٩) عرابى، أحمد ، تقرير مقدم إلى برودلى ونابيير فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، مطبعة الجامعة بمصر ، د.ت ، ص ص ١٠، ١١ .

(٦٠) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ملف ثابت باشا، ١٠، ١١ مايو ١٨٨٢ .

(٦١) Egypt (7) 1882 , No. 173 , May 11 , 1882 , P. 120, الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٣١، ڤينا ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢، Duse, op. cit, p. 79

(62) Blunt, op. cit, p. 344.

(٦٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/أ.

(٦٤) المصدر نفسه، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٨/ب.

(٦٥) النقاش ، المصدر السابق ، ص ص ٨٨ ، ٨٩ .

(66) Blunt, op. cit, p. 272.

(67) Ibid, p. 347.

(68) Milner, Sir A., England in Egypt, Seventh Edition, London, 1883, p. 17.

(٦٩) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٣١، ڤينا ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٧٠) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ .

(٧١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٩ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٩ ، Biovès, A., Français et Anglais en Egypt 1881-1882, Paris, 1910, p. 91.

(72) Doc. Dip. F. Tom IV, No 336, 23 Mai, 1882.

(٧٣) عبد العزيز الشناوى ، جلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، القسم الثانى، مصر الحديثة والمعاصرة ، ط ٢ ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩ ، ص ص ٦٨٣ ، ٦٨٤ .

(٧٤) يونان لبيب رزق ، تاريخ الوزارات المصرية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ط ١ ، ص ١٠١ .

(٧٥) عبده ، محمد مذكرات جمعها وقدمها طاهر الطناحى تحت عنوان "مذكرات الإمام محمد عبده" ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٧٦) الفسطاط ، عدد ٧ فى ٣١ مايو ١٨٨٢ .

(٧٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ .

(٧٨) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٧٩) كرم ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ص ١١٥ ، ١١٦ .

(81) Blunt, op. cit., pp. 344-364.

(٨٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/أ ، ٣٨٤/أ.

(٨٣) النقاش ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٨٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ .

(٨٥) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٥٤، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٧١ .

(٨٦) شاروبيم، المصدر السابق، ص ١٢٨، شفيق، المصدر السابق، ص ١٩٤ .

(٨٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/أ .

(٨٨) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٥٠٠ .

(٨٩) لطيفة محمد سالم ، عرابى ورفاقه فى جنة آدم ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ص ١٢-١٥ .

(90) F.O. 78/ 4267, Douglas (Report), Jan. 11, 1883.

(91) Ibid, Douglas - Derby, Oct. 29, 1883.

(92) Broadley, op. cit., vol II.

(93) F.O. 78/ 4268, Gordon- Derby, Dec. 19, 1883.

(94) Ibid, Jan. 25, 1885.

(٩٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤٢ ، محضر ٢٦ فبراير ١٨٨٥ .

(96) Broadley, op. cit., vol II.

(٩٧) النديم، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٩٨) حسن طلب، المرجع السابق ، ص ص ١٢٠، ١٢١ .

(٩٩) لطيفة محمد سالم ، عرابى ورفاقه فى جنة آدم ، ص ص ٩٥،٩٦ .

(100) F.O. 78/ 4589, March 18, May 30, July 10, 12, 31, 1899.

(١٠١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤٢ .